(السالب والموجب) بين العمارة العربية والعمارة الغربية في التصميم الحضري

(مقاربة أساسية)

د. وليد السيد
معماري/جامعة لندن

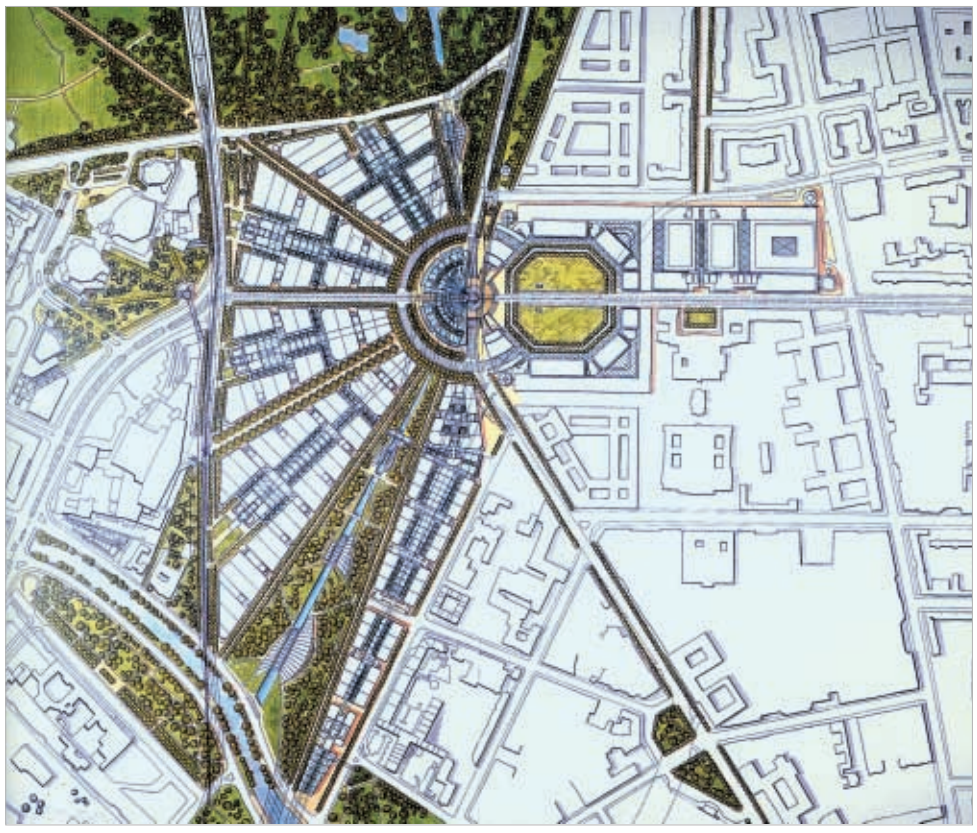

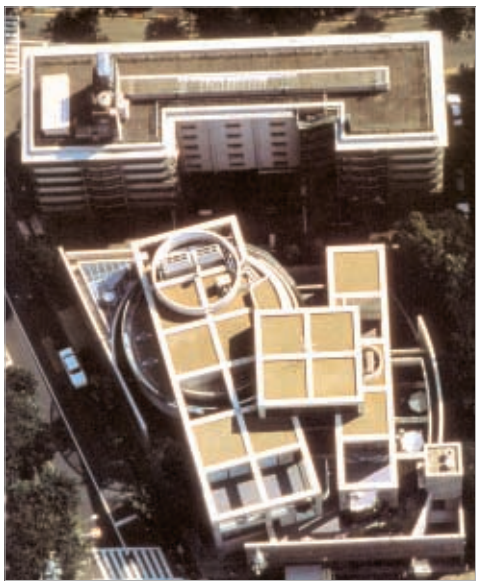

تمثل فكرة المقارنة والحوار بين مراحل مختلفة من تاريخ الحضارة ذاتها ايا كانت، او بين الحضارات المختلفة ركيزة مهمة في تطور الفكر الفلسفي المعماري والذي يعمل على تبسيط المعادلة الى عواملها الاولية وتفكيك الروابط بين عناصرها من اجل ادراك العلاقات وتقعيد القواعد وصولا من المقدمات الى النتائج المنطقية مع الدحض والنفي. وهي ابسط قواعد التفكير المنهجي المنظم الذي يرفض الاخذ بالمسلمات المتكررة كحقائق اعتمادا على (تكرارها) كعامل للتسليم بصحتها كما قدمها لنا الفيلسوف كارل بوبر.

ومن هنا يعمد هذا المقال للمقارنة بين عنصرين أساسيين في العمارة ويشكلان عماد اي نسيج حضري او حيز فراغي معماري وهما الحيز الفراغي (الموجب) وهو الكتلة المعمارية المكونة من الحوائط والفواصل الانشائية والتي تفصل الداخل عن الخارج وتميز العام عن الخاص . اما الثانية فهي الحيز الفراغي (السالب) وهي ببساطة عكس الاولى او هي الشوارع والممرات والازقة وطرق الحركة اما داخل النسيج الحضري ان كان المعني بالتحليل والدراسة هو النسيج الحضري، او هو الممرات والموزعات الداخلية ان كان المعني بالدراسة المبنى ذاته. وهذا المقال معني بطرح وتتبع فرضية مفادها الاختلاف الجوهري في العلاقة بين السالب والموجب بين العمارة العربية التقليدية من ناحية وبين العمارة الغربية المعاصرة من ناحية اخرى. فما هو هذا الاختلاف؟

تبين النظرة السطحية السريعة لنسيجين حضريين لمدينتين احداهما عربية تقليدية والاخرى غربية وجود فروقات ملحوظة اساسية في طبيعة تشكيل هذين النسيجين. اذ فيما يبدو النسيج العمراني الحضري في اية مدينة عربية تقليدية وكأنه عفوي التخطيط ذو شبكة متعرجة من الشوارع والطرقات المتدرجة من المتسع الى الاضيق انتهاء بالطرقات الخاصة غير النافذة. وفي المقابل نجد ان المدينة الغربية تتبع نمطا تخطيطيا مختلفا، حيث تبدو الشوارع وكأنها اساسية في التخطيط وتفرض نفسها على حساب المباني والكتل المحيطة، اضافة الى انها احيانا كثيرة ما تتبع التقسيمات الشطرنجية والخطوط المستقيمة التي تنطلق من الميادين والساحات الكبيرة وتجري بكافة الاتجاهات والزوايا ولكن بخطوط مستقيمة. وهذا الاختلاف الرئيسي في التنظيم الكلي الهيكلي للمدينتين له انعكاسات ومفاهيم مهمة في آلية وطبيعة ادراك الحيز الفراغي اوعلاقته بالمحيط من فراغات الحركة كالشوارع والممرات والطرقات، بالاضافة الى آلية تشكيل النسيج العمراني الحضري ككل بين المدينتين.

ففي حالة المدينة العربية التقليدية فقد وصفت الدراسات التي بحثت موضوع التشكيل العمراني والآليات المختلفة التي تشكلت بها المدينة (مرحلية) بنائية نمت بها المدينة مع وجود بعض الاستثناءات كما في بغداد المنصور المدورة او غيرها، لا (جاهزية) مسبقة في البناء والتخطيط كما هو الحال في معظم المدن الغربية. وجهدت الدراسات المعنية كدراسة بسيم حكيم (المدينة العربية الاسلامية) وغيره بالاضافة الى تقديم نماذج من المدن العربية التقليدية كتونس وغيرها الى تفكيك عناصر المدينة العربية التقليدية ومن ثم البحث في الآلية التي تشكلت بها عناصرها المختلفة. وبالمقابل نجد دراسات مثل ليون كرير والتي تبحث في المدينة الغربية وعناصرها التي تتشكل منها. وبالرغم من وجود تشابه في العناصر المختلفة التي تشكل المدينتين من مرافق دينية وسياسية وثقافية وتجارية وسكنية، الا ان الآليتين مختلفتان وذلك تبعا لتصور العلاقة بين الموجب والسالب وهيمنة كل منهما في النسيج الحضري للمدينتين.

بداية نجد من المفيد ان نعيد تعريف او تصنيف مجموعتين من الاحيزة الفراغية على مستوى المبنى الواحد مثلا وهما: اولا الاحيزة الفراغية الرئيسة وذلك مثل الغرف الرئيسة والقاعات والافنية وغيرها، وثانيا الاحيزة الفراغية الثانوية مثل الممرات والادراج والمرافق الخدمية وغيرها. وتصميم وتشكيل اي مبنى انما هو نتيجة التفاعل ما بين هاتين المجموعتين من الاحيزة الفراغية. والاختلاف الجوهري بين الثقافات المختلفة او بين التصميم في العمارة العربية التقليدية وبين العمارة الغربية انما يكمن في طبيعة التوازن بين سيطرة احدى المجموعتين على الاخرى والاهمية التي تكتسبها ضمن التصميم.

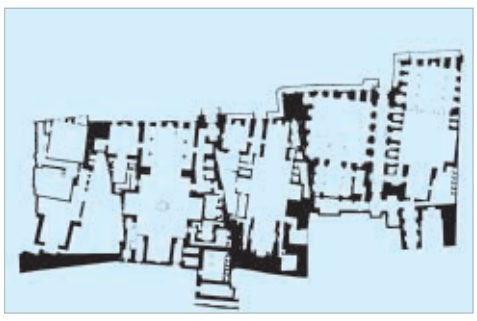

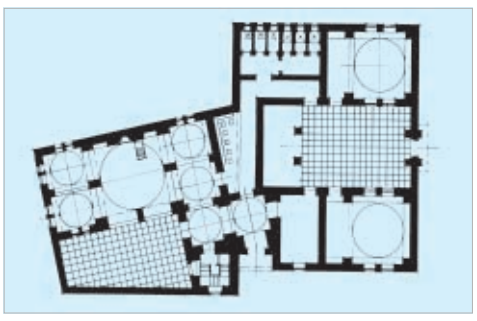

ففي المدينة العربية التقليدية بشكل عام وفي التصميم المعماري بشكل مصغر يحتل الحيز الفراغي (السالب) اهمية اقل من مثيله في العمارة الغربية بالاضافة الى تميزه ووضوحه عن مثيله في العمارة الغربية رغم انه لا يكتسب اهمية من حيث التشكيل الهندسي وغالبا ما ينتج لاستيعاب التغيرات المفاجئة في الاتجاه او الحركة والتي تحفل بها العمارة العربية التقليدية. ونجد العكس تماما في المفهوم الغربي للفراغ السالب حيث يكتسب اهمية موازية للفراغ الموجب من حيث التشكيل الهندسي وايضا من ناحية السيطرة والموقعية في المبنى او المدينة. وكثيرا ما نجد المباني في العمارة الغربية قد تشكلت تبعا للمرات والطرق بطريقة احيانا ما تكون (بطريقة القص كمربعات الجبنة). او في احيان اخرى نجد الاحيزة الفراغية الثانوية حسب تصنيفنا اعلاه وقد احتلت مواقع واشكالاً هندسية متميزة ومهمة احيانا وبارزة للعيان اكثر من الاحيزة الفراغية الرئيسة، فكثيرا ما تحفل العمارة الغربية بالمصاعد التي تتصدر المحاور الرئيسة للمبني وتصمم بطريقة ظاهرة او (بانورامية)، في حين نجد القاعات الرئيسة والمدرجات وقد اخفيت تحت الارض او احتلت مواقعها علي محاور غير رئيسة او ثانوية.

وهذه الظاهرة قلما نجدها او ربما منعدمة في المفهوم التصميمي في العمارة التقليدية اذ ان تحليل اي مبني يبين علاقة متوازنة بين المجموعتين الفراغيتين مع هيمنة الفراغات الرئيسة في التصميم محورا وشكلا، في حين تستعمل مجموعة الاحيزة الفراغية الثانوية كاضافات وحشوات بين الاولى وتمتص اية نقلات في سبيل المحافظة على (سيادة) مجموعة الفراغات الاساسية للمبني او للمدينة بشكل عام. هذا ابرز ما يمكن لحظه من فروقات بين المفهومين العربي والغربي للفراغ الموجب والسالب من ناحية تشكيلية. ولا يعني ذلك ان الفروقات مقتصرة على هذه النواحي التشكيلية، اذ ولا بد من انعكاسات اجتماعية وثقافية هي ناتج ومؤثرات في نفس الوقت لا بد من بحثها وهي موضوع دراسة اخرى ومقال آخر.

برج بيزا المائل وقصة اعتداله

□ لونارد - روما:

يعد برج بيزا واحدا من عجائب العالم القديم نظرا لشهرته حيث يميل الى احد جانبيه، وتعود قصة بنائه الى القرن الثاني عشر الميلادي وبالتحديد العام ١١٧٣م اذ تم بناء الطوابق الثلاثة الاولى فقط. وقد لاحظ المهندسون آنذاك ميل البرج حوالي ٣٠-٤٠ سنتيمترا وذلك بسبب طبيعة التربة المقام عليها البرج والمياه الجوفية بالمنطقة فتوقف البناء. وبعد حوالي اكثر من قرن كامل بوشر البناء مرة اخرى في العام ١٢٧٥م من قبل Giovanni di Simone الذي اضاف ثلاثة طوابق اخرى للبرج. ومع مطلع العام ١٢٨٤م اكتمل البرج بستة طوابق وبلغ ارتفاعه ٤٨ مترا. وفي ذلك الحين بلغ مقدار ميل البرج من القاعدة وحتى القمة ٩٠ سنتيمترا بالرغم من محاولات الخدع البصرية التي اجراها المعماريون لتقليل تأثير الميل.من خلال اضافة الطابق النهائي والذي كان عموديا بخلاف الطوابق الستة الباقية. وعلى اية حال فلم يشكل ميل البرج اي خطر باحتمال سقوطه كما اعتقد البناة في ذلك الوقت. كل ما هنالك ان الاعتقاد كان ان البرج سيريح ثقله على التربة تحته. ولكن مع مطلع القرن الرابع عشر بدأت التوقعات باحتمالات ميل البرج اكثر فأكثر، ولذلك فقد تم تثبيت اجراس ثقيلة في الجهة الاخرى في الطابق السادس.

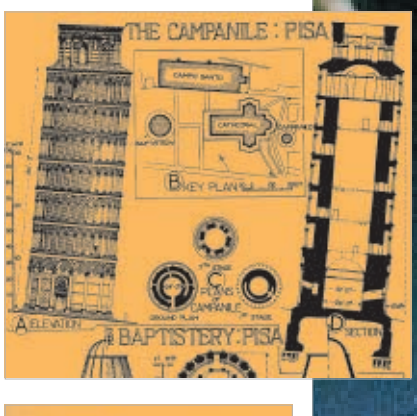

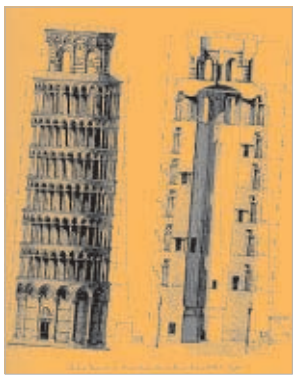

وبين الاعوام ١٣٥٠ -١٣٧٢م اوقف Tommaso di Andrea Pisano اكمال الطابق الاخير في نهاية الطابق السادس، وبذلك تعديل الميلان وتقليل الثقل على الجهة التي يميل البرج باتجاهها. وفي تلك الفترة كان الميل قد وصل الى ١٤٣ سنتيمترا. ومع اكتمال الطوابق السبعة بالاضافة الى القاعدة بلغ ارتفاع البرج ما يقارب ٥٦ مترا عن مستوى قاعدته. منذ ذلك الحين بلغ معدل الميلان حوالي ملليميتر واحد كل عام.

وقبل حوالي عشر سنوات مع مطلع التسعينيات ادركت الجهات الايطالية المسؤولة خطورة الوضع واستمرار الميلان فأغلقت البرج تماما امام الزوار والسواح. وبدأت المحاولات لتعديل الميلان او على الاقل الحد من سرعة الميل مما بدأ يوحي بسرعة سقوطه. ومع العام الماضي اثمرت المحاولات عن تعديل البرج حوالي اربعين سنتيمترا. وقد تقدمت جهات عديدة بمحاولات وبدائل لانقاذ البرج المتهاوي والآيل للسقوط. وكان احد الاقتراحات هو بناء برج مماثل يميل للجهة المعاكسة. وكان اقتراح آخر بتخريم البرج اكثر من عشرة آلاف ثقب لتخفيف وزنه. وتم في النهاية ومع صبر ومثابرة من قبل فريق خبراء دولي بواسطة حفر التربة تحت البرج من جهة وتعديل ميلانه بذلك مع استعمال ثقالات وروافع لمنع اي انهيار غير متوقع.

ويتوقع الخبراء المعماريون والمهندسون الجيولوجيون ان يعيش البرج التاريخي الشهير ثلاثمائة سنة اخرى على الاقل بوضعه الحالي. واحتفل الايطاليون مع شهر يونيو الماضي بالحفاظ على برج بيزا الشهير واحد عجائب الدنيا السبعة. ومما يذكر ان اعمال الترميم والحفاظ قد بلغت تكلفتها اكثر من ٢٥ مليون دولار امريكي.

المشربية في العمارة التقليدية

□ لونارد - لندن:

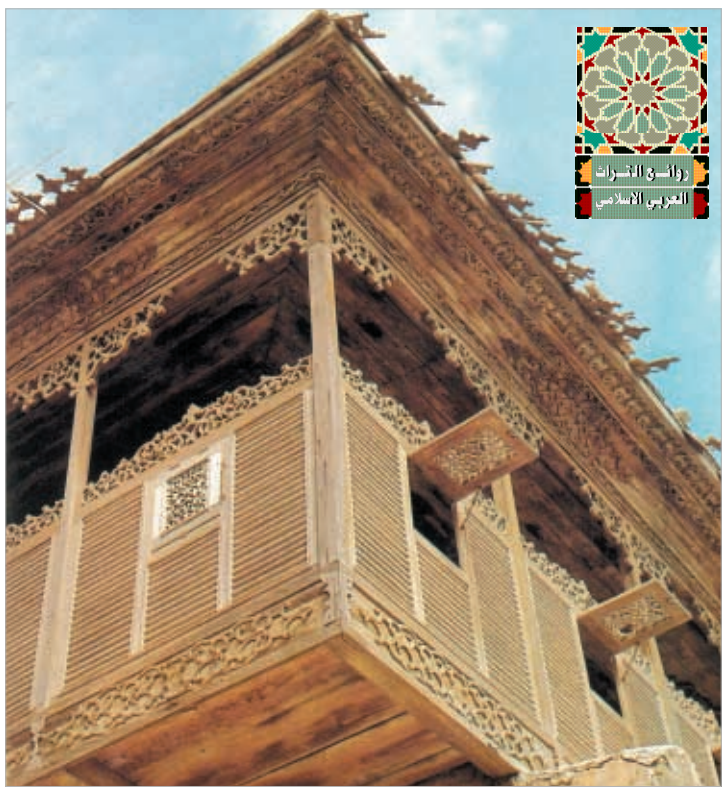

المشربية كعنصر معماري هي مما غلب استعماله في العمارة التقليدية. والمشربية تشتق اسمها حسب ما تجمع عليه بعض الكتب من وظيفتها، اذ غلب استعمالها كمبرد لجرة الماء التي كانت تعلق بها. وعلى أية حال فقد استعملت المشربية لأكثر من وظيفة في العمارة التقليدية. فمن هذه الوظائف والمعروفة غالبا كانت وظيفة بصرية بحيث تسهم في حجب الانظار لمن في الخارج سواء اكان ماشيا ام ممتطيا للدابة او الجمل من مد النظر والتدخل بخصوصية القاطنين بالمبنى كالبيت او غيره.

وتتشكل المشربية من مجموعة من القطع الخشبية المتداخلة والمشكلة بتشكيلات هندسية مختلفة غالبا ما تصمم بما يعرف (بالمربوعة) في جوانبها الاربعة وهي ما يمثل المربع ولكن ذو دوران مختلف في كل ناحية. كذلك تحتوي المشربية على فتحات وشبابيك متعددة ومختلفة المناسيب، اذ يتم التحكم بفتحها واغلاقها حسب الحاجة. وقد استعمل الخشب كمادة رئيسة لصناعة المشربية وكانت تتم معالجته بطلائه بالزيت ومعالجته تحت الشمس حتى يقاوم عوامل الجو من تمدد وتقلص باختلاف درجات الحرارة ليلا ونهارا وصيفا وشتاء. وما تزال هذه الاساليب التقليدية من اسرار الحرف اليدوية التي يتفرد بها افراد قلائل على امتداد الوطن العربي وبخاصة في مدن شمال المغرب العربي كمصر والمغرب وتونس، وكذلك في سوريا حيث يغلب استخدام هذا العنصر في العمارة التي تستلهم روح التراث. ولا تقتصر هذه الاستعارة لهذا العنصرالمعماري على هذه المناطق انما تستعمل كذلك في دول الخليج العربي ماضيا وحاضرا.

وتختلف المشربية حجما من اقليم لآخر ومن منطقة لآخرى، اذ تستعمل في منطقة الحجاز وجدة القديمة لتغطية واجهة كاملة احيانا او تمتد على اكثر من طابق، كما تتشكل من اكثر من مستوى حيث تبرز احيانا وترتد للداخل احيانا اخرى. كما تسمى تسميات مختلفة من منطقة لآخرى اذ بالاضافة الى الاسم مشربية تعرف في العراق باسم الشناشيل.

وفي الاستعمال والتصميم المعاصر لم تخل المشاريع المعاصرة من الاجتهادات التي ابتكرت وجهدت في تقديم مفاهيم معاصرة لهذا العنصر المعماري وذلك باستخدام مواد مختلفة، وغالبا ما يعمد بعض المعماريين المعاصرين الى النماذج التقليدية للمشربية مع القليل من التحوير، فيما يجتهد آخرون في تبسيط الشكل العام للمشربية والتلاعب بادخال الحجر كمادة لقاعدتها فيما يتم تصميم الواجهة بالطريقة التقليدية واستعمال المربوعة والاجتهاد في مراعاة الفتحات الامامية والجانبية وتبسيط القمة التي غالبا ما شكلت تاج المشربية لصرف مياه المطر او لتوفير الناحية الجمالية او لاغراض اخرى مناخية. ولا تخلو بعض المحاولات المعاصرة من استخدام مادة الزجاج وتقديمها كنموذج حديث بتحد جريء لفكرة الخصوصية. وعلى اية حال لا تزال المشربية واحدة من ابرز المفردات المعمارية التقليدية والمعاصرة التي يطيب للمعماريين اللجوء اليها في تصاميمهم المختلفة من سكنية وتجارية وغيرها.